

## التواضع

من الأخلاق السامية التي حثّ عليها الإسلام ورَغَب فيها خلق التواضع ، به يعيش المجتمع في محبة وتسامح ، تسوده المودة والألفة ، ومن ثمّ أوصانا الإسلام أن نتخلق بهذا الخلق العظيم ، وأن نتسم بهذه السمة النبيلة.

والتواضع معناه: انكسار القلب لله عند الأمر امثلاً ، وعند النهي اجتناباً ، وخفض جناح الذل والرحمة للخلق ، حتى لا يرى له على أحد فضلاً ، فكلما علت نفس الإنسان ذكر عظمة الله تعالى فتواضع وانكسر .

والتواضع أمرٌ محمودٌ ومرغوبٌ فيه إذا قصد به صاحبه وجه الله تعالى، ومن كان كذلك رفع الله قدره في القلوب ، وطيّب ذكره في الدنيا ، ورفع درجته في الآخرة . ولقد أمر الله تعالى نبينا (صلى الله عليه وسلم) بالتواضع واللين وخفض الجناح للمؤمنين ، قال تعالى:{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥]، بمعنى: لِيْنَ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَوَطَّئُ لَهُمْ أَكْنَافَكَ ، وَهُوَ أَمْرٌ بِالْمَيْلِ إِلَيْهِمْ.

ولقد أشار المولى (عز وجل) إلى أن التواضع من صفات المؤمنين الذين يحبون الله ويحبهم أنهم أهل لين وذلة على أهل الإيمان ، وأهل شدة مع الكافرين والمافقين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَلَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَزَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤]، أي: متذليلين لهم ، عاطفين عليهم، خافضين عليهم أجذحتهم ، كما ذكر ربنا سبحانه وتعالي أنه من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى:{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبُهُمْ أَجْاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣].

والناظر في سيرته (صلى الله عليه وسلم) يجد عشرات الأمثلة التي تدل على عظم تواضعه (صلى الله عليه وسلم)، ليكون مثلاً وقدوة للمؤمنين في التخلق بهذا الخلق الكريم، فها هو (صلى الله عليه وسلم) لا يستكبر أن يذكر ما مضى من حاله أيام الشباب من رعي الغنم، بعد أن أكرمه الله بالنبوة ، فَعَنْ أَيِّ هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمْ)، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَارِبَيْطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ) (رواية البخاري).

وقد ضرب النبيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المثل العملي والتطبيقي للتواضع مع أهله، فقد سُئلت السيدة عائشةُ (رضي الله عنها) مَا كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قالت: (كَانَ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِهِ يَعْنِي: خِدْمَةً أَهْلِهِ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ) (رواه البخاري)، قال القاضي عياض معلقاً على هذا الحديث : (كان في بيته في مهنة أهله يغلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويরقح ثوبه ، ويخصف نعله، ويخدم نفسه ، ويعرف ناضجه ، ويقيم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته من السوق ، وكونه يباشر خدمة أهله من مزيد فضله وكمال تواضعه، وذلك إذا كان في بيته وانفرد بهم ولم يكن ثم ما هو أهتم منه وإنما اشتغل بالأهتم (إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

أي: مبادراً لأدائها ، تحريضاً على فعلها أول وقتها الذي جاء في الصحيح أنه أفضل الأعمال).

ومن حسن تواضعه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه كان يلقى السلام على الصبيان والغلمان إذا مر بهم ، فعن أنس (رضي الله عنه) : أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صَبَّيَانِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وقال: (كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَفْعَلُهُ) (متافق عليه). أي: تواضعاً ، وعن أنس (رضي الله عنه) قال: (إِنْ كَانَتِ الْأَمَّةُ مِنْ إِمَاءِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَتَسْطِلُقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ) (رواه البخاري).

ولما هاجر رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأراد أن يبني المسجد اشترك بنفسه الكريمة في حمل الحجارة وأعمال البناء ، وأخذ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ينقل معهم اللَّبَنَ في بيانه ويقول : (هَذَا الْجِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْرٌ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ، وَيَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ) (رواه البخاري).

ولقد أمر النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المؤمن بالتواضع لله (عَزَّ وَجَلَّ) ، والإخوانه من المسلمين ، وألا يستعمل فضل الله عليه في الفخر أو الظلم لأحد من المسلمين ، حيث قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَنْبَغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) (رواه مسلم).

**ألوان التواضع:**

**والتواضع يكون مع الله ،** بأن يتقبل الإنسان أمور الدين وي الخضع له سبحانه وتعالى خصوصاً تاماً وكمالاً ، ولا يجادل ولا يعترض على أوامر الله برأيه أو هواه ، ويكون

**مَعْ رَسُولِهِ** (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِسُنْتِهِ وَهُدَيْهِ، فَيَقْتَدِي بِهِ فِي أَدْبَرِ وَطَاعَةِ ، وَدُونِ مُخَالَفَةِ لِأَوْامِرِهِ وَنِوَاهِيهِ، **وَيَكُونُ مَعَ الْخَلْقِ** ، بِأَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَعْرُفَ حَقَوْقَهُمْ وَيَؤْدِيَهَا إِلَيْهِمْ مِمَّا كَانَتْ دَرْجَتُهُمْ وَمَنْزِلَتُهُمْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ ، وَأَنْ يَنْصَاعَ لِلْحَقِّ وَيَرْضَى بِهِ مِمَّا كَانَ مَصْدِرَهُ.

**وَمِنْ ثُمَراتِ التَّواضعِ: أَنَّهُ سَبَبَ الرَّفْعَةَ وَالْعُلُوَّ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَالثَّوَابَ وَالْأَجْرَ فِي الْآخِرَةِ،** قَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بَعْفُوًّا إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ) (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، فَاللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) يَرْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَثْبِتُ لَهُ بِتَوَاضُعِهِ فِي الْقُلُوبِ مَنْزِلَةً، وَيَرْفَعُهُ اللَّهُ عِنْدَ النَّاسِ وَيَجْلِّ مَكَانَهُ . وَقَالَ الشَّاعِرُ:

تَوَاضَعَ تَكَنْ كَالنَّجْمِ لَاحْ لَنَاظِرٍ \*\* عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ  
وَلَا تَكْ كَالدَّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ \*\* إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ

**وَمِنْ ثُمَراتِهِ تَهْذِيبُ النَّفْسِ،** فَيَجْعَلُهَا تَقْبِلُ الْحَقَّ مِنْ قَائِلِهِ ، سُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضَ عَنِ التَّوَاضُعِ فَقَالَ: (يَخْضُنُ لِلْحَقِّ، وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَقْبِلُهُ مَمْنَ قَالَهُ ، وَلَوْ سَمِعَهُ مِنْ صَبِيٍّ قَبْلَهُ ، وَلَوْ سَمِعَهُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ قَبْلَهُ).

**وَهُوَ سَبِيلُ إِبْقَاءِ النِّعَمِ،** قَالَ كَعْبَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الدُّنْيَا فَشَكَرَهَا اللَّهُ وَتَوَاضَعَ بِهَا اللَّهُ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ نَفْعًا فِي الدُّنْيَا ، وَرَفَعَ بِهَا دَرْجَةً فِي الْآخِرَةِ.

**وَمِنْ ثُمَراتِهِ أَنَّهُ يَضْمَنُ لِصَاحِبِهِ الْجَنَّةَ،** فَعَنْ تَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ: الْكِبْرُ، وَالْعُلُولُ، وَالْدَّيْنُ دَخَلَ الْجَنَّةَ) (رَوَاهُ التَّرمِذِيُّ).

وَقَدْ يُلْتَبِسُ التَّوَاضُعُ بِالذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا بُونٌ شَاسِعٌ، فَالْدَّافِعُ لِلتَّوَاضُعِ هُوَ الْإِمْتَالُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَالْدَّافِعُ لِلذَّلَّةِ حَظْوَظُ النَّفْسِ وَشَهْوَاتِهَا ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْمَهَانَةِ؛ أَنَّ التَّوَاضُعَ يَتَوَلُّ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَصَفَاتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ وَنَقْصَانِهَا وَعِيُوبِ عَمَلِهِ وَآفَاتِهَا ، فَيَتَوَلُّ مِنْ ذَلِكَ التَّوَاضُعَ، وَأَمَّا الْمَهَانَةُ فَهِيَ: الدُّنْعَاءُ وَالْخُسْنَةُ؛ بَذْلُ النَّفْسِ وَابْتِذَالُهَا فِي نَيْلِ حَظْوَظِهَا

وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم ، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع. (الروح لابن القيم).

